



الزاوية الشرقاوية بين الاستمرارية والتحول
ملاحظات أولية(1)

ذ. صالح شكاك*

تمهيد:

شكلت مؤسسة الزوايا محور دراسات عديدة،وهي إما دراسات قام بها أجانب في إطار إجمالي،مثلا (G.Drague)و(M.Bellaire) و(P.Ravaux) و(P.Marty)و(André,Général P.J)...أو على شكل مونوغرافيات خاصة حول زاويتي " أحنصالة وأمهاوش"،(M.Bellaire) ، و"أحنصالة"(M.Morsy)... أو دراسات قام بها مغاربة ، كالزاوية الدلائية لمحمد حجي ، وإيليغ لمحمد مختار السوسي وتلمكروت لعبد الله حمودي ،والزاوية الوزانية للهاشمي برادلي . أما الزاوية الشرقاوية ، فلم تحض إجمالا إلا بدراستين هامتين لأحمد بوكاري وDale F. Eickelman.

ويمكن تصنيف هذه الدراسات عموما إلى أطروحتين(2) :

ــ أطروحة وطنية ، تستقي مرجعيتها من فكرة حضور الدولة ، لذلك فهي تؤكد على أن الزوايا مؤسسة خاضعة للمخزن ، وجودها واستمرارها رهين بوجود هذه السلطة ، وعليه فإن دورها السياسي لا يصبح حاضرا إلا بقوة نفوذها الاجتماعي والديني.

ــ أطروحة أجنبية ، تعتبر هذه المؤسسة معارضة للمخزن ، تلعب دور المعوض له ،لذلك فهي في صراع معه ، أطروحة تسعى لإثبات غياب الدولة ... فقد ساهمت الدراسات الأثنوغرافية الفرنسية ــ مثلا ــ "في دراسة الأولياء دراسة لا تقدر بثمن. ولكن ضعفها تجلى في كونها كتبت بآراء جاهزة ، وأكثر هذه الدراسات كتبها لها موظفون فرنسيون ، أو أشخاص معدون لهذا الغرض ، مما خطأ معلوماتهم في بعض وجهات النظر"(3).

* أستاذ باحث بثانوية عبد الله الشفشاوني ــ تمارة.

الزاوية الشرقاوية والإرث التاريخي :

ورثت الزاوية الشرقاوية تراكما تاريخيا مكنـــها مــن مــد نفوذهــا المــادي والروحي في مناطق واسعة وخاصة في تادلة والشــاوية ... ملكــت فــي الديــر عقارات واسعة وأجنة ودور ومعاصر وأرحية(4). وكــانت لـــها قطعـــان مواشـــي ومراعي واسعة ... فقد كان للمرابط المعطي بن الصالح أحد أحفاد الولي الشـــهير سيدي محمد الشرقي " صيت عظيم وجاه عريض ... وأصحـــاب واتبـــاع خاصـــة وعامة . وكان أهل جهته من العرب والبربر مطبقون على تعظيمه وكـــانت آثـــار الخيرات عليه بادية "(5). وهكذا كانت "هذه الزاوية من أشهر زوايا المغرب، ولـــها الفضل الذي يفصح عنه لسان الكون ويعرب ، تداولها منذ أزمـــان فحـــول أكـــابر ورثوا مقام الولاية والرياسة بها كابرا عن كابر، قد عرف لهم ذلك السوقة والملوك ، والغني والصعلوك ، ولم تزل الملوك من هذه الدولـــة وغيرهـــا تعاملهم بالإجلال والإعظام والتوقير والاحترام"(6). ونظرا لكثرة المريدين والأتبـــاع والأموال والضياع، فإن الزاوية كانت تقوم بعدة أدوار، نذكر منها :

ــ أدوار دينية وتعليمية .

ــ الإشراف على الصلح بين القبائل وتنظيم المجال فيما بينها والحفاظ على العـــهود والمواثيق.

ــ ضمان الأمن وتقديم المشورة والرأي للحكام المحليين.

ــ مباركة ومرافقة حرْكَـــات السلطان أو من ينوب عنه.

ــ في نفس الوقت ، كان شيوخ الزاوية يلعبون دور الوساطة بين المخزن المركـزي والقوى المحلية ،أو التوسط لدى السلاطين لمباركة هذا القائد أو لفضح أفعـــال ذاك. وعليه فقد كانت اتصالاتهم بالمخزن المركزي تتم مباشـــرة ، وكـــانت مراســـلاتهم وآراؤهم تحظى بأهمية بالغة لديه.

لم تكن الزاوية الشرقاوية كيانا خارج الصراع الاجتماعي ، لذلك فإن صمودهـا كان رهينا بعمقها الاقتصادي ومرجعيتها البشرية ، وبمدى قدرتها على استغلال هذا الرصيد لفرض هيمنتها محليا بالعطاء والرمزية ولجلب اعتراف المخزن بها كقـــوة فاعلة لا غنى له عنها ، ولحاجة هذا الأخير إلى دعمها ومباركتها ... وعليه ، فقـــد كانت الزاوية تتحرك في مجال جغرافي وبشـــري تـــدرك أهميتـــه الاســـتراتيجية والاقتصادية، مجال عادة ما وصف في الأدبيات المخزنية نفسها ببلاد السيبة، لذلـــك كان نفوذ الزاوية يقاس بقوة حضورها وتأثيرها في مسارات الأحداث. وإذا كـــانت الزاوية تباشر كل عمل يزيد في إشعاعها فإنها مقابل ذلك كانت تعارض كل تدخـــل قد يمس بهذا الإشعاع أو يضيق من مجاله ،حتى ولو كان الأمر مخزنيا "[...] يعلـــم مولانا أن خيام أولاد السيد مُـحمد الشرقي نازلون بحلتهم مـــع بنـــي اخـــلـــف ورديغة إسمهم لمْـكَالـــفة يعلمون ما هم عليه ورديغة مـــن الفســـاد فـــي الأرض

والقتال [...] وبعده يأتون بقوافلهم وقوافل ورديغة معهم ويبلغون لورديغة ما لم يقدروا عليه من سلع وبارود وخفنا إن تعرضنا لهم ولمن معهم وقبضناهم يشكون ويتظلمون مع أنهم في الفساد سواء[...] "(7). وفي مجال تثبيت الأمن وتوزيع الأدوار، كانت الزاوية تقترح أو تبارك تعيين القواد بالمنطقة، فقد لعب شيخها "سيدي بنداود الشرقاوي" دورا أساسيا في تنظيم لقاء بمقر الزاوية سنة 1878 جمع بين السلطان المولى الحسن وبعض زعماء الأطلس المتوسط ، حيث تم تعيين "موحى وحمو الزياني" قائدا على زايان وأيت يعقوب، و"محمد أكلبي" قائدا على زايان أيت زكوكو على تراب مريرت ووالماس(8). ومقابل هذه الأدوار والخدمات، كانت الزاوية تحصل على عدة امتيازات معنوية كظهائر الاحترام والتوقير والتعظيم ... وامتيازات مادية كإعفاء وتحرير أعزبة الزاوية من مختلف الكلف والضرائب(9) . فكانت الزاوية تجني من ذلك أموالا كثيرة، لما عاد عليها من هدايا وهبات وضرائب الزكاة والأعشار...وفي هذا الإطار كتب "شارل دوفوكو" الذي دخل أبي الجعد على الساعة الواحدة والنصف من يوم 6 شتنبر 1883 (10) ، بأن الزاوية استقبلت 400 جملا محملا بالحبوب قبل وصوله إلى أبي الجعد بأسبوع، وعاين شخصيا وصول قافلة من 200 جملا ،يضاف إلى ذلك هدايا كثيرة من أموال وخيول ورؤوس مواشي(11). أما أعزبة الزاوية وفروعها فكانت موزعة بمنطقة تادلة والشاوية مابين 1875 و1912 ،على الشكل التالي(12).

المكـــــان	عدد الخيام	زوايا فرعية
ورديغة	90	1
السماعلة	12	—
بني عمير وبني موسى	—	1
الشاوية	122	8

الزاوية الشرقاوية والوضع الجديد :

يظهر أن الزاوية الشرقاوية كانت على علم بما يجري من أحداث في المغرب، وما تعرض له هذا الأخير من ضغوطات، وما جرى بين الدول من منافسة أو تفاهم حول مصيره. كما أن اتصالها المبكر نسبيا بالفرنسيين كالرحالة "دوفوكو" جعل الزاوية تدرك أن الفرنسيين يستعدون لاحتلال المغرب في المستقبل القريب(13) . وقد يفهم بهذا نوع الأسئلة المطروحة على هذا الرحالة ، ونوع التعامل معه بحذر باعتباره جاسوسا، وتوخى منه البعض وساطة لدى الفرنسيين للحفاظ على مصالح الزاوية أو للحصول على مناصب شخصية كما هو الحال بالنسبة للحاج إدريس بن عمر الشرقاوي الذي طلب أن يكون قائدا مقابل ما لديه من نفوذ وما قدمه من معلومات كافية حول جهة تادلة(14).

المتعارضين. ولتحقيق هذا الغرض الأخير انتـدب السلطـان المولى عبد العزيـز شريـف الزاويـة الوزانيـة سيـدي "عبد الجبار بن محمد العلمـي" للإشـراف على ذلـك مباشـرة بأبـي الجعـد ، إلا أنه فوجئ بالوضع الـذي توجـد عليـه أعزبة الزاوية ، فإذا كانت أعزبة الزاويـة الوزانيـة فـي ملكيـة شـرفاء وزان وبالتالـي لـهم الحق في التصرف فيهـا والانتفـاع منهـا، فإن أعزبة الزاويـة الشرقاوية كانت في الواقع في ملك الفلاحين المسـتغلين لـها،لذلـك قـال الشـيخ للشرقاويين:" إنكم تتصارعون حول ثروة لا ملكية لكم عليها". وأمام هـذا الانقسـام الذي أصبح واقعا في عهد السلطان المولى عبد العزيز والسـلطان المولـى عبـد الحفيظ، انقسام لا يجد تفسيره فقط فيما وقع من أحداث ، وإنما يجد تفسـيره كذلـك في تدخل المخزن ليشغل الزاوية في نزاعات داخلية بهدف إضعافها، إلا أن المولـى عبد الحفيظ اضطر إلى توجيه الدعوة للطرفين معا للمشاركة في الحركة الموجهـة لمحاربة "الروكي بوحمارة".وكان من نتائج هذا الانقسام كذلك ، إضافة إلى التسـوب الفرنسي في المنطقة أن ذهب الشيخ الحاج محمد بن داود ضحية ذلك سـنة 1910. وأصبـح الشيـخ"عبـد الله بن العربي" زعيما لقطب الضحية(22) . وفي بدايـة 1913 كانت الزاوية الشرقاوية ممثلة بالشيخين الحاج محمد وعبد اللـه حاضرة فـي ورديغة إلى جانب الجنرال « Franchet D'Espery »لاختيار قواد المنطقة(23).

لـف الحـاج محمـد		لـف عبـد اللـه		
القبيلة	القائد	القبيلة		القائد
أولاد بحـر الصغار	الجيلالـي بـن عباس	أولاد بحر الكبار		عمر بن أحمد الورديغي
بني سمير	ولد يونس	السماعلة	أولادعيسى	محمدولدالسربوت
			المعادنة	محمد الدريوش
الكناديز	بلحاج الدرمومي	موالين الدندون		حمو بن المرسلي

إن ما تعرضت له الزاوية من تدخلات من طرف المخزن ، وما عرفتـه مـن صراع مع القواد المحليين ، وما تراكم لديها من معرفة بالوضع السياسي المغربـي والدولي ، جعل الزاوية ــ كزوايا أخرى ــ تختار الطرف القـوي فـي المعادلـة

المتعارضين. ولتحقيق هذا الغرض الأخير انتدب السلطان المولى عبد العزيز شريف الزاوية الوزانية سيدي "عبد الجبار بن محمد العلمي" للإشراف على ذلك مباشرة بأبي الجعد ، إلا أنه فوجئ بالوضع الذي توجد عليه أعزبة الزاوية ، فإذا كانت أعزبة الزاوية الوزانية في ملكية شرفاء وزان وبالتالي لهم الحق في التصرف فيها والانتفاع منها، فإن أعزبة الزاوية الشرقاوية كانت في الواقع في ملك الفلاحين المستغلين لها،لذلك قال الشيخ للشرقاويين:" إنكم تتصارعون حول ثروة لا ملكية لكم عليها". وأمام هذا الانقسام الذي أصبح واقعا في عهد السلطان المولى عبد العزيز والسلطان المولى عبد الحفيظ، انقسام لا يجد تفسيره فقط فيما وقع من أحداث ، وإنما يجد تفسيره كذلك في تدخل المخزن ليشغل الزاوية في نزاعات داخلية بهدف إضعافها، إلا أن المولى عبد الحفيظ اضطر إلى توجيه الدعوة للطرفين معا للمشاركة في الحركة الموجهة لمحاربة "الروكي بوحمارة".وكان من نتائج هذا الانقسام كذلك ، إضافة إلى التسوب الفرنسي في المنطقة أن ذهب الشيخ الحاج محمد بن داود ضحية ذلك سنة 1910. وأصبح الشيخ"عبد الله بن العربي" زعيما لقطب الضحية(22) . وفي بداية 1913 كانت الزاوية الشرقاوية ممثلة بالشيخين الحاج محمد وعبد الله حاضرة في ورديغة إلى جانب الجنرال « Franchet D'Espery »لاختيار قواد المنطقة(23).

لف الحاج محمد		لف عبد الله		
القبيلة	القائد	القبيلة		القائد
أولاد بحر الصغار	الجيلالي بن عباس	أولاد بحر الكبار		عمر بن أحمد الورديغي
بني سمير	ولد يونس	السماعلة	أولادعيسى	محمدولدالسربوت
			المعادنة	محمد الدريوش
الكناديز	بلحاج الدرمومي	موالين الدندون		حمو بن المرسلي

إن ما تعرضت له الزاوية من تدخلات من طرف المخزن ، وما عرفته من صراع مع القواد المحليين ، وما تراكم لديها من معرفة بالوضع السياسي المغربي والدولي ، جعل الزاوية ــ كزوايا أخرى ــ تختار الطرف القوي في المعادلة

فكانت إلى جانب الفرنسيين سواء تعلق الأمر بمدهم بالمعلومات الكافية حول الشاوية وتادلة ... أو في دعمهم لتطويع القبائل ، لذلك بادر الفرنسيون إلى رأب الصدع الذي عانت منه الزاوية، فتمكنوا بإشراف " Franchet d'Espereig"من توحيد الزاوية من جديد(24). في نفس الوقت بادر الجنرال المقيم العام "ليوطي" إلى توجيه رسالة من "البروج" في 25 أبريل1913 ، إلى الشيخ عبد الله بن العربي الشرقاوي يعبر فيها عن سروره وهو يشهد كتابة للشيخ بالرضى لما قدمه من خدمات لصالح فرنسا، وفي ذلك تزكية يمكن للشيخ أن يستغلها لدى السلطات الفرنسية(25). ومع بداية الحماية ، أصبح الكثير من الشرقاويين يتحملون مسؤوليات جديدة كالقيادة والنظارة والقضاء... فالحاج إدريس بن عمر الشرقاوي أصبح موظفا في هيئة الإنزال الفرنسية بالدار البيضاء منذ 1907 ،وأصبح عبد القادر بن الحاج محمد قائدا على أبي الجعد بينما تحمل أخوه بناصر ، خريج المدرسة العسكرية بمكناس قيادة بني عمير ، أما الشيخ عبد الله بن العربي فتحمل مسؤولية القضاء بأبي الجعد، في حين تحمل ابنه محمد مسؤولية نظارة الأحباس بأبي الجعد ووادي زم(26).

خاتمة :

ورثت الزاوية الشرقاوية رصيدا تاريخيا غنيا ، مكنها من الاستمرار قرونا طويلة بعكس زوايا أخرى معاصرة لها. فقد استمر موقعها أحسن حالا، فكان شيوخها معتدلين عقيدة وسياسة ، لم يسلكوا سبل المهدوية وادعاء الشفاعة وعلم الغيب أو تعويض سلطة المخزن ... لذلك كانت الزاوية الشرقاوية وريثة زاوية الصومعة والزاوية الدلائية والزاوية الزعرية(27). ورغم ما تعرضت له من نكبات واهتزازات نتيجة تدخل المخزن المركزي ، والصراع العزيزي الحفيظي والتدخل الفرنسي في المنطقة ... فقد استطاعت الزاوية أن تتكيف مع الوضع الجديد وأن تحافظ على بعض مكتسباتها السابقة. ورغم تراجع دورها المقدس مقابل تنامي دورها المادي والدنيوي ، فقد بقيت الزاوية تستند إلى قدسية شيوخها الأوائل وتستند إلى مرجعيتها التاريخية الثرية. ولعل ما طبع الزاوية في استمراريتها وما طرأ عليها من تحولات أصاب زوايا أخرى (28) في ظل المتغيرات الجديدة ،خاصة وأن هذه المتغيرات مست مختلف البنيات الاقتصادية والاجتماعية والمؤسساتية والذهنية...في العمق. فلم تعد الإدارة العصرية ــ مثلا ــ في حاجة ملحة إلى وساطة وخدمات الزوايا. ومع ذلك ، لا يمكن استخلاص الخلاصات النهائية أو الاستنتاجات الأكيدة ، فالموضوع في حاجة إلى المزيد من البحث وتقصي الوقائع...

الهوامـش :

1) ـــ تحتاج هذه الملاحظات الأولية إلى الكثير من التفاصيل التي قد تفسر بعض المتغيرات والوقائع ... كما تحتـاج إلى وثائق تدعم الكثير مما ورد فيها أو تفنده ، وخاصة المراسلات التي تمت بين السلطانين المولى عبد العزيز والمـولى عبـد الحفيظ من جهة وشيوخ الزاوية الشرقاوية من جهة أخرى ... أو وثائق شرقاوية خاصة ، خاصة وأن أهم مصادر هـذه الملاحظات الأولية يعتمد كتابات أجنبية لاتخلو من أفكار قد تكون مسبقة أو مؤولة وفق أغراض معينة ...

2) ـــ مؤسسة الزوايا بالمغرب الإسلامي، مساهمة في التركيب ، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي ، السـنة الأولى ، عدد1 ، دجنبر 1986 ، ص ص :.12 - 11

3) ـــ دال . ف. إيكلمان : جوانب من التنظيم السياسي والاقتصادي لزاوية مغربية في القرن 19، موضوع اجتمـاعي تاريخي ، ترجمة : معروفي عبد الغني ، دار النيابة ، السنة1 ، عدد3 ، صيف1984 ، ص : 28.

4) ـــ محمد بن عبد الكريم العبدوني:يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطى، مخطـوط الخزانـة العامـة رقـم 305ك.ص:136.

5) ـــ محمد بن الطيب القادري: التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أهل المائة الحادية والثانيـة عشـر ، مخطوط الخزانة الحسنية ، رقم122 ،ص : 254. ورد عند محمد بن البشير بوسلام : تاريخ قبيلة بني مـلال (1916 - 1854)، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط1991 ، ص :192.

6) ـــ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج8 ،دار الكتاب ، الدار البيضاء 1956 ، ص: 59.

7) ـــ ملخص من رسالة القائد ابن الجيلالي المعروفي إلى السلطان بتاريخ3جمادى الأولى عام 1210،كنـاش الخزانـة الحسنية رقم4.

8) ـــ François Berger, Moha ou Hamou le Zaiani ,Ed « de l'Atlas » Marrakech 1929. pp: - 25 - 28.

9) ـــ الملكي المالكي :جوانب من التاريخ السياسي والديني والاجتماعي لأبي الجعد ، ندوة مدينة أبي الجعد ،الذاكـرة والمستقبل ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ، ندوات ومناظرات رقـم 40 ، الطبعـة الأولى 1995،ص : 37.

10) ـــ Vicomte ch. De Foucauld, Reconnaissance au Maroc, sociètè d'Editions. Paris,- 1939.p:121.

11) ـــ Ibid, p : 122 - .

12) ـــ Dale F.Eickelman, Quelques aspects de l'organisation politique et économique d'une- Zowya (بتصرف) marocaine au XIXe siècle, un essai Socio-historque. Ramalif, n° 97.1972. p p:51-52-53

13) ـــ Ibid , p : 41 - .

14) ـــ Charles De Foucould, Reconnaissance..., op.cit. pp : 134 - 135 - .

15) —– Abdallah haroui,Les origines sociales et culturelles de nationalisme marocains (1830-1912)). Casablanca 1993. p : 146.

16) — - J.Sicard , Maroc, Situation religieuse des tribus traversées par la Maballa du Caïd hayadi , Revue du Monde Musulman , T.III , 1911. p : 345.

17) — - Ibid .

18) — - Paxal Durand , Boujad, Ville sainte, B.C.A.F, R.C, n° 2. 1931, p : 74.

19) — - J. Sicard, Maroc, Situation ..., op. cit.

20) — - Pascal Durand, Boujad...op cit, p : 74.

21) — - Claude D'Escorcheville, Etude manuscrite sans titre sur les shergàwa, 1938. in, Dale F.Eickelman, Quelques aspects ..., op. cit, p : 45.

22) — - J. Cimetière, Notice sur Bou Djad, Revue du Monde musulman. T.XXIV, 1913.p :19.

23) — - Pascal Durand, Boujad, ...op. cit, pp : 75 - 76.

24) — - J. Cimetière , Notice ..., op. cit.

25) ــ هذه الرسالة محتفظ بها في أرشيف الزاوية مع باقي الظهائر السلطانية ، ورد عند :
- Pascal Durand , Boujad... , op. cit, p : 76.

26) — - Ibid , p : 77.

27) ــ محمد مفتاح : مصير زاويتين ، ندوة أبي الجعد ...، مرجع سابق ، ص : 77.

28) ــ راجع على سبيل المثال ، عبدالعزيز الخمليشي ، زاوية تمجــروت والمخــزن (1642 - 1914) ، الرباطــات والزوايا في تاريخ المغرب ، الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ،سلسلة نــــدوات ومناظرات رقم.69 1997 . ص ص : 121 - 177.